المحاظرة:3: تطور التربية المقارنة من المنظور التاريخي:

يذكر علماء التربية المقارنة أن التربية المقارنة تطورت مرتين وفق مسارين وهما:

في الشرق: ويتضمن التربية المقارنة عند علماء المسلمين. وفي الغرب: يتضمن التربية المقارنة عند علماء الغرب عند نهضته الحديثة.

أولا: التربية المقارنة عند المسلمين في الشرق:

إن ظروف نشأة التربية المقارنة في الشرق العربي والإسلامي كانت مختلفة عنها في الغرب، فقد مرت التربية المقارنة في العالم الإسلامي بمرحلتين هما:

1- مرحلة وصف نظم الحياة في البلدان. 2- مرحلة الربط بين نظم التعليم في بلدان مختلفة.

المرحلة الأولى: مرحلة وصف نظم الحياة في البلدان :-

تميزت هذه المرحلة بكثرة الرحلات والزيارات، ووصف الأماكن التي زارها الرحالة والباحثون، ويرجع ازدهار هذه المرحلة إلى العصر العباسي، حيث الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي أتاح – بدوره – للمسلمين المضي قدما في طريق العلم والحضارة، حيث اعتمد ادب الرحلات والجغرافيين المسلمين على المشاهدة والوصف فوصفوا كل ما طافوا به من بلدان من الصين إلى البلطيق إلى الاندلس وجزر المحيط وإفريقيا ومملك غانا فأخذوا يتنقلون بين البلدان ويسجلون انطباعاتهم عن تلك البلدان التي زاروها وأنظمتها وطرائقها الحياتية وعن مساكنهم وعقائدهم ولغاتهم واجناسهم وعاداتهم وتقاليدهم وغير ذلك من أحوالهم ، وكان لفريضة الحج دور فاعل في التحفيز على التنقل والاختلاط بين الأجناس بعضها ببعض، فقد كان كل حاج سواء من المشرق الإسلامي أو المغرب الإسلامي يمر بكثير من البلاد في أثناء سيره لبلاد الحجاز، وكان هذا بمثابة الخطوة الأولى في الأبحاث الوصفية والمادة الأولى للأبحاث الأنثروبولوجيا الاجتماعية و من هذه المؤلفات :-

– وفيات الأعيان لابن خلكان. – نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي. – الرحلة المغربية للعبدلي.

– المسالك والممالك وكتاب الصحراء الكبرى لابن حوقل. – مسالك الممالك للاصطخري.– رحلة ابن جبير لابن جبير.– معجم البلدان لياقوت الحموي.– تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لابن بطوطة.

– الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة في أرض مصر للبغدادي.

– كتاب الاثار الباقية وكتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله للبيروني وغيرهم من المؤلفين.

كان عرض أولئك العلماء والرحالة لما رأوه في تلك البلدان ليس عرضا سطحيا أو وصفاً عابراً وإنما كان وصفاً دقيقا لكل مناحي الحياة، وقد ركز هؤلاء على أمرين مهمين هما:

المساجد والمدارس، وهما يعتبران من المؤسسات التربوية في تلك البلاد، وإذا كانت هذه المرحلة تتميز بالوصف فقط، دون المقارنة إلا أنها تعتبر أساساً للمقارنة، إذ لا يمكن قيام مقارنة إلا بالوصف أولاً. كما برز في مجال التربية عدد من العلماء أمثال ابن سحنون القيرواني (202–256) حيث أكد على أهمية تعلم القرآن وضرورة توفير الظروف المناسبة، وعدم استعمال القسوة في تعليم التلاميذ وضرورة تعليم البنات والبنين دون اختلاط.

أما القابسي(324–403) أبو الحسن المعافيري القيرواني: فدعى الى وجوب تعليم القرآن و ضرورة تعليمه لجميع الصبيان ذكور وأناث لان التعليم حق لهم جميعا ودعى الى اكتساب الفضائل عن طريق التعليم والقدوة ، وحث على ضرورة الرفق في معاملة الصبيان. أما أبو حامد الغزالي(450–505):فبين أن الغرض الاسمى للتربية هو التقرب لله وغاية التربية مراعاة استعداد الطفل وطبعه وميوله وأخذه بالآداب الدينية وان يعمل المعلم بعلمه، وان المعرفة وسيلة لتحقيق السعادة في الدنيا والاخرة، كما ميز بين نوعين من العلوم وهما علوم العبادات وهي فرض عين وعلوم الدنيا وهي فرض كفاية، واعتبر الطفل أمانة لدى واليه كالصفحة البيضاء قابل لكل ما ينقش عليه. ووجوب مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، أولى اهتماما بالتربية الرياضية والخلقية، عدم التصريح بالعقاب والاكتفاء بالزجر ومدح المتعلم وتكريمه على أفعالة الحسنة. وحدد مجموعة من السمات الواجب توفرها في المعلم كالمعاملة الحسنة والقدرة على توضيح العلوم.

المرحلة الثانية: مرحلة الربط بين نظم التعليم ومجتمعاته: يعتبر العلامة عبد الرحمن بن خلدون (732 – 808 هـ) (1331–1405م) إضافة إلى كونه مؤسس علم الاجتماع وعالم معدود من علماء التاريخ سابق لجميع العلماء الغربيين بأكثر من خمسة قرون في مجال التربية المقارنة حيث إنه كان أول من ربط بين نظم التعليم والمجتمعات التي توجد فيها تلك النظم وقد ذكر ذلك في مقدمته.

في الكتاب الأول من كتابه المشهور (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) اتبع المنهج المقارن في حديثه عن بلاد العالم المختلفة ونظم التعليم فيها بشكل خاص وكان منهج ابن خلدون تطويراً لمنهج من سبقه مثل ابن بطوطه وابن جبير حيث إنه امتاز عنهم بسعة أفقه وشمولية منهجه، وموسوعيته.

ولم يقتصر ابن خلدون على وصف الحالة التعليمية في مختلف الحواضر والأمصار الإسلامية بل تحدث عن أمصار غير إسلامية، وبالرغم من أن ابن خلدون معروف بين المؤرخين الغربيين غير المتحيزين على أنه مؤسس علم الاجتماع إلا أن إشارته لنظم التعلم في البلدان الإسلامية في عصره جعلت اسمه يرد ضمن رواد التربية المقارنة في الفترة السابقة للقرن التاسع عشر في أوروبا. واستطاع أن يجرى مقارنات حية عن تعليم الولدان في كثير من البلدان التي زارها، ويمكن القول أيضاً أن المنهج الذي اتبعه ابن خلدون في مقدمته كلها كان المنهج المقارن حيث نراه يعرض القوى الثقافية في خمسة أبواب، ثم يأتي بعد الحديث عن هذه القوى الثقافية بأثرها على التعليم وهو في حديثه عن القوى الثقافية وحديثه عن التعليم يستشهد بالأمثلة الحية من التاريخ القديم والحديث ومن بلاد العالم المختلفة، التي تتفاوت ظروفها الجغرافية والسياسية والاقتصادية والحضارية، مستخدماً منهج البحث العلمي الحديث كلها فيما عدا المنهج التجريبي.

وتأسيساً على ما سبق يمكن القول إن ابن خلدون في منهجه المتمثل في دراسة الظواهر الاجتماعية من منطلق أنها محكومة في سيرها بقوانين تشبه ما عداها من الظواهر الطبيعية، كان غير مسبوق من كوكبة علماء التربية

المقارنة، والذين يرون خضوع الظواهر الاجتماعية بما فيها الظواهر التربوية إلى قوانين موضوعية، وبالتالي يجب أن ينصب العمل النهائي للتربية المقارنة على الكشف عن هذه القوانين وتوظيفها بما يفيد إصلاح نظم التعليم

ثانيا: التربية المقارنة عند علماء الغرب:

لقد مرت التربية المقارنة عند علماء الغرب بعدة مراحل، ومن أهم هذه المراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة وصف الحياة في البلاد الأجنبية:

تتمثل هذه المرحلة بالرحلات والزيارات التي كان يقوم بها الرحالة والزائرون للبلاد المختلفة، وذلك بقصد وصف النظم التربوية في المؤسسات التربوية الموجودة في المجتمعات، وهذا الوصف يمكن أن ينقل إلى مجتمع آخر بالمشافهة، أو عن طريق كتابتها وتسجيلها. ولعل من أقدم أنواع هذه الكتابات : ما كتبه الرحالة الإغريقي بيثياس، الذي كان يستوطن مرسيليا في فرنسا، والذي كان أول من اكتشف الجزر البريطانية . وقد سجل رحلته واكتشافه في كتابه " في المحيط ". ومن أشهر تلك الكتابات القديمة أيضاً "رحلة ماركوبولو"، والتي سجل فيها ماركوبولو رحلته التي قام بها في فينيسيا بإيطاليا، وزار فيها الشرق الأقصى، ثم سجل رحلته هذه في كتاب يحمل اسمها.

في العصور الوسطى كان للمسلمين السبق في وصف الحياة في البلاد، أما دور الغرب في هذه الفترة فقد كان محدوداً، نظراً لانعدام الاستقرار السياسي، والاجتماعي الذي عانت منه أوروبا حوالي قرنين من الزمان.

المرحلة الثانية: مرحلة وصف نظم التعليم في البلاد الأجنبية:

وقد تضمنت الفترة ما بين نهايات القرن الثامن عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر، وكان هدف الباحثين فيها جمع البيانات الوصفية عن النظم التعليمية الأجنبية. ودراستها بغرض استعارة أفضل ما يمكن استعارته منها، كلما أمكن ذلك لإصلاح النظم التعليمية القومية، في أعقاب الثورة الصناعية ومن أسبابها اتضاح العلاقة بين اصلاح نظم التعليم والتقدم الاقتصادي، حيث لوحظ أن الثورة الصناعية تفجرت في البلاد البروستنتية التي سارت بعد الإصلاح الديني في طريق الثورة على القديم المتوارث من الأفكار والعقائد والرؤى حيث امتدت حركة الإصلاح إلى التعليم فانشئت نظم تعليم حديثة تتفق مع روح الإصلاح ولذاك كانت الكتابات في البلدان التقليدية تدور حول تجربة الإصلاح في البلدان الثورية بحيث أخذت بالإصلاح الديني وعكسته على نظم التعليم بها بهدف نقلها والاستفادة منها، ومن أمثلة تلك الدراسات ما كتبه فردريك أوجست هخت تحت عنوان " مقارنة بين النظم التعليمية الإنجليزية والنظم التعليمية الألمانية "

وفي ألمانيا أرسلت حكومة بروسيا سنة 1801م بعض مفتشيها لدراسة أعمال المربي السويسري المشهور بستالوتزى، ليتعلموا منه طريقته في التعليم، وتميزت هذه المرحلة بكونها كانت وصفية في معظمها تعتمد على دراسة الحالة، وأنها كانت لا تحتوى على النقد أو الدراسة العلمية للنظم التعليمية بقدر ما كانت تمتدح أو تذم تلك النظم. وإن غرضها كان نفعياً، إذ كان الدارس يهدف إلى استعارة بعض جوانب النظم التعليمية الأجنبية لتعديل النظام التعليمي في بلده أو تحسينه.

المرحلة الثالثة: مرحلة الربط بين نظم التعليم ومجتمعاتها: بدأت في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وحتى منتصفه، وفي هذه المرحلة تحول الاهتمام من مجرد وصف النظم التعليمية، وجمع الحقائق والملاحظات عن هذه النظم إلى الاهتمام بالعوامل والقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تكمن وراء الظواهر التعليمية من أوجه تشابه واختلاف. حيث بدأت مصلحة التعليم في إنجلترا سنة 1897 متأثرة في ذلك بمكتب الولايات المتحدة للتعليم، وبنشر سلسلة تقارير خاصة بالتعليم في البلاد المختلفة كان يشرف على إصدارها سير مايكل سادلر، وقد استمر في إصدارها حتى بداية الحرب العالمية الأولى 1914 وقد عكست وجهة نظره هذه الكتابات فكان دائم الربط بين النظم التعليم التي يتحدث عنها والثقافات السائدة في البلاد الموجودة بها تلك النظم، وقد أدت زيادة الاتصال بين مختلف البلدان نتيجة التقدم التكنولوجي مع بداية القرن العشرين الى فرض الدراسات المقارنة نفسها على غيرها من الدراسات سواء في الاخلاق أو القانون أو السياسة أو الاقتصاد أو التربية، فقد قام بيتر ساندیفورد بعد الحرب مباشرة بدراسة لنظم التعليم في ستة بلدان وهي إنجلترا وفرنسا وألمانيا وأيطاليا وروسيا والولايات المتحدة.

ومن أشهر رواد هذه المرحلة كذلك أوليس، وكاندل، وهانز، وشنيدر.

وقد تأثر الباحثون في مجال التربية المقارنة طيلة النصف الأول من القرن العشرين بآراء سادلر، التي كانت تركز على القواعد التالية:

– ضرورة دراسة النظم التعليمية الأجنبية دراسة علمية موضوعية.

– إدراك أن دراسة الباحث للنظام التعليمي الأجنبي يجعله أكثر قدرة على فهم النظام التعليمي في بلده، واكتشاف العيوب.

–إضافة العامل الاجتماعي كمؤثر عام، إلى جانب العوامل التاريخية في تشكيل النظم التعليمية.